مادة: النص الأدبي الحديث **جميع التخصّصات**

المستوى:السنة الثانية ليسانس **الأستاذ: بن زياني**

محاضرة رقم 07:

مدخل إلى الفنون النثرية

لم يكن النثر العربي قُبَيْلَ العصر الحديث أحسن حالا من الشعر، فقد جمدت فنونه، وضاقت أغراضه، وضعف أسلوبه، ودار معظمه حول الرسائل والمقامات بأسلوب كثرت فيه الحلي اللفظية، والمحسنات البديعية، وتسرَّبت العامية إلى الفصحى، كما ساد الاهتمام بالتنميق اللفظي دون الاهتمام بالمعنى، فلم يعد للأدب مكانة بعد أن تمّ تهميشه وضعف تداول اللغة العربية وتشويهها بتسريب ألفاظ اللغة التركية إلى قاموسها.

وبقي الحال على حاله في القرن التاسع عشر؛ حيث بدت الفنون النثرية على قلتها مثقلة بالمحسنات البديعية وبالسجع، كما حدثت محاولات لإحياء فن المقامة من طرف الشيخ ناصيف اليازجي، ومن جهة المضمون كان النثر يعنى بالقضايا الاجتماعية والسياسية، ولكن بطرائق الوعظ الأخلاقي وبالنقد التهكمي الساخر الذي يتناول المظاهر أكثر مما يتناول الجواهر.

وعندما بدأت النهضة الحديثة نتيجة الاتّصال العرب بحضارة الغرب، وإحيائهم التراث العربي القديم، أخذ النثر يتقدّم شيئا فشيئا، وكانت استجابته للتطور أسرع من الشعر، لاهتمام رواد النهضة بالنثر أكثر من الشعر، فقد نقلت إلى اللغة العربية علوم الطب والهندسة والفنون الحربية مترجمة بأسلوب علمي في أوائل أيام النهضة، وهو ما كان دافعا لإدخال التجديد على الأنواع النثرية القديمة، من جهة وعلى ظهور فنون نثرية جديدة بقوالب تعبيرية جديدة لتعرف أساليب النثر الحديثة تطورًا في العديد من الأشكال ومنها: **فنّ المقال، الخطابة ،الرسالة، القصة، الأقصوصة، الرواية، المسرح...** وهذه الأشكال نجدها قد ازدهرت في عصر النهضة الأدبية بعد حملة**(نابليون بونابرت)** على المشرق العربي**(مصر)** ، حيث كانت هذه الحملة العسكرية من أهم العوامل الباعثة

للنهضة العربية التي ما كانت لتحدث لولا الاحتكاك مع الحضارة الغربية عن طريق البعثات العلمية والطباعة والترجمة والاستشراق من جهة، وربط الصلة بالماضي وإحياء التراث العربي من جهة أخرى.

1) تعريف النثر لغة واصطلاحا:

يُعرّف النّثر لُغةً أنه مأخوذ من المادّة اللّغويّة(نَثَر)، أي رمى الشّيء وألقاه على نحو مُتفرّق ومُبعثَر، ونَثَر الكلام: أي أرسله بلا قافية أو وزن، أمّا النّثر اصطلاحاً كما عرّفه الكاتب حنا الفاخوريّ في كتابه (الجامع في تاريخ الأدب العربيّ) فهو الكلام المُرسل على نحو تلقائيّ وعفويّ دون تقيّده بوزنٍ عامّة، إلّا فيما يُسمّى "السّجع" الذي يتّميّز بوجود القافية، كما أنّ كلام الشِّعر يختلف عن النّثر في احتوائه على الوزن والقافية، كما أنّ النّثر أيضا يعد أحد أشكال الكتابة التي تعتمد على السّرد الطبيعيّ، مثل المُحادثات الحاصلة بين النّاس، والمقالات المنشورة في الصُّحف، والكتب المدرسيّة، وغيرها من مظاهر الكتابة التي تخلو من الكلام الموزون.

2) الفرق بين الشّعر والنّثر:

يُعدّ النثر الحديث من الفنون التي لجأ إليها العرب للتخلص من القيود الشعرية، وهو سبب التسمية في المقام الأول، فالنثر يعني رمي الشيء بشكل مُتفرق وعشوائي، وهذا هو حال النثر مُقارنةً بالشعر، بعض الكلام الذي يتم وضعه جنبًا إلى جنب كما ينثر المرء السُكر على قطع الكعك.

وما يُميز النثر حقًا عن الشعر هو كون الشاعر يتقيد بالأوزان والقوافي، وضرورة كتابة الكلمات وانتقائها والبحث في القواعد النحوية لتقديم الكلام وتأخيره في سبيل الحصول على قصيدة شعرية في نهاية المطاف تمتاز بكونها موزونة ومقفاة.

وبشكل عام يُعد النثر من صور الأدب الإنساني، والجدير بالذكر أنه في المقام الأول ليس بفن عربي، ولكن لا شك في كون العرب والناطقين بلغة الضاد أكثر من أبدعوا في هذا الفنّ اللغوي والأدبي، وأضافوا إليه قيمةً ووزنًا لا يُمكن لجاحدٍ أن يُنكرهم.

كما يعد كل من النّثر والشّعر عناصرَ رئيسة أسهمت بشكل كبير في تشكيل صورة الأدب العربيّ عبر العصور الأدبية، والشّعر يُعرَف بأنّه كلام موزون مُقفّى، وتتبع القصائد الشعريّة أوزاناً وتفعيلاتٍ شعريّةً مُعيّنةً حتى تنتظم أبياتها على وزن واحد، لكن على الرّغم من أنّ النّثر كلام غير موزون، إلا أّنه مصبوغ بصبغة أدبيّة جميلة، ولا يُمكن التّفضيل بينهما؛ فتصعُب المُقارنة بينهما، لكن العرب عرفوا الشّعر قبل النّثر بزمن طويل، وإلى الآن لم يستقرّ الباحثون والنُقّاد على رأي واحد في أفضلية النّثر على الشّعر، أو الشّعر على النّثر.

3) مراحل تطور النثر العربي:

الرجوع إلى أصل النثر في التُراث العربي نجد أنه قد بدأ في العصر الجاهلي، و كان يشتمل على أبواب الوصايا، الخطابة، بالإضافة إلى الحكم والأمثال، ومع مرور الوقت ودخول العصر الإسلامي بعد بَعْثِ أشرف الخلق مُحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وما تبعه من عصر بني أموية، ازدهر فيها النثر بشكل كبير، فوصل إلى حقبته الذهبية خلال العصر العباسي على وجه الخصوص، فآنذاك راجت الكتابات النثرية والأدبية، وبدخول العصر العُثماني تراجع حتى وصل إلى أسوأ مراحله مُنذ عصر الجاهلية الأول، واستمر هذا الانحدار الملحوظ حتى نهاية القرن الثامن عشر، فباختلاط العرب بالعجم أثناء الحملات الإنكليزية والفرنسية بدأ الأدب يعود إلى وضعه القديم.

أمّا عن النثر العربي في العصر الحديث، نجده قد مرّ في عمومه بمراحل ثلاث، يمكن توضيحها على النحو الآتي:

أ) مرحلة التقليد: حاول بعض الأدباء أن يعيدوا إلى النثر قوته، فحاكوا أدباء القرن الثالث والرابع للهجرة، واتخذوا من أسلوب(ابن العميد) مثلا يقلدونه، فاهتموا بالصياغة الفنية وسهولة الأسلوب ووضوحه، ومن أشهر أدباء هذه المرحلة: (جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، خليل اليازجي،...وغيرهم).

ب) مدرسة المحافظين: ويمثل هذه المدرسة جيل من الأدباء الذين أحسوا بطغيان حضارة الغرب على المجتمع العربي، فحافظوا عليه من التصدّع والانهيار بسبب ما تحمله ثقافة الغرب من تيارات واتجاهات خلقية واجتماعية تتعارض مع تعاليم ديننا وأساس قوميتنا، فاتجهوا إلى الشباب بالنصح والتوجيه، وحاولوا علاج مشاكل المجتمع على أساس عربي إسلامي، وقد لجأ أدباء هذه المدرسة إلى الأسلوب المرسل، المتشبع بضروب البيان والصناعة البديعية مع عنايتهم بالفكرة وجمالها، ويمثل هذه المدرسة كثير من الأدباء منهم:(المنفلوطي، الرافعي، أحمد حسن الزيات،...وغيرهم).

ج) مدرسة المجددين: ويمثل هذه المدرسة جماعة من الأدباء الذين أخذوا بحظ وافر من الثقافة الأدبية الأوروبية في فترة استقام فيها أسلوب التعبير العربي على أيدي مدرسة المحافظين.

ثم جاء المجددون وخطو بالنثر خطوات واسعة، فجددوا في أغراضه ووسعوا في موضوعاته، فصارت تشمل الاجتماع والنقد والسياسة والتاريخ وغيرها، وساعدت ظروف المجتمع العربي من النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية على اتساع أغراض النثر ومجالات التعبير به.

وكان للمجلات الأدبية دور هام في ازدهار هذا اللّون من ألوان التعبير الفني، ويتميز أسلوب المجددين بالتحرّر من قيود الأساليب القديمة، حيث اهتموا بالمعاني، يبرزونها دقيقة واضحة ويصوغونها في قالب مشرق وضاح.

ومن أبرز أدباء هذه المدرسة، نجد كل من:(العقاد، طه حسين، البشير الإبراهيمي، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة،...) وغيرهم من الأدباء.

4) فنون النثر: يمكن أن نميّز بين نوعين من النثر:

أ) النثر العلمي: يطلق أسلوب النثر العلمي على النثر الذي يعبر عن المفاهيم العلمية المختلفة من نظريات أو حقائق أو تجارب أو ظواهر تاريخية أو اجتماعية أو نفسية.

وقد تطور هذا الأسلوب في العصر الحديث تطوّرا كبيرا، فإذا ما نظرنا إلى محاولة المؤرخ المصري(عبد الرحمن الجبرتي، ت1825م) في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)،

وجدناه يتردّد في أسلوبه بين الفصحى والعامية وبعض الكلمات التركية.

ولكن (رفاعة رافع الطهطاوي) خطا بالنثر خطوة ملحوظة، حيث اهتم بوضوح المعنى في كتابه (تخليص الأبريز في تخليص باريز) وان كانت عبارته تسمو حينا وتهبط أحيانا.

ولما كثرت الترجمات في علوم الطب والهندسة وفنون الحرب والفلك والرياضيات وغيرها استقرت دعائم الأسلوب العلمي إلى حد كبير.

ومع التقدّم العلمي المعاصر في شتى العلوم والفنون، كثرت المصطلحات الجديدة في كل لغات العالم، ولما كان معظم مخترعي هذه الاصطلاحات من غير الناطقين بالعربية، فإنّه كان لزاما على المهتمين باللغة العربية متابعة هذا التطور العالمي، والبحث عن طريقة علمية لإيجاد المصطلحات العلمية باللغة العربية، ومن ثمّ تابعت الجمعيات والمجامع اللغوية نشاطها في هذا الميدان.

ويتميز أسلوب النثر العلمي: ببساطة العبارة وسهولة الألفاظ ووضوح الفكرة والبعد عن الخيال والعاطفة ويستخدم _ غالبا _ مصطلحات علمية خاصة بكلّ علم من العلوم أو فن من الفنون، وهدفه توصيل الفكرة إلى الذهن سليمة وأن خلا من جمال الشكل ورونق العبارة.

ومن كتاب النثر العلمي:(أحمد زكي، زكي نجيب محمود، الشيخ محمد الخضري، الشيخ محمد مبارك الميلي).

ب) النثر الفني: يتناول النّثر العديد من الأغراض التي تشمل جوانب الحياة، ومشاكلها، ومظاهرها المُختلفة، بالإضافة إلى تضمّنه العلوم الإنسانيّة، والعلميّة، والمعرفيّة.

ويعرّف النّثر الفنيّ أنه النّثر الذي يظهر فيه الانتقاء الجيّد للألفاظ من قِبل الكاتب في تقديم فكرته أو موضوعه، لذلك يُعدّ هذا النّثر من الأنواع التي يتميّز فيها الكاتب بأسلوبه الخاصّ.

وتأتي الكتابة النثرية الفنية نتاج تجربة شعورية أو فكرية، يرغب الكاتب بالتعبير عنها، فيتّجه إلى اتخاذ أسلوب فني لغوي، وجنس أدبي محدّد للكتابة من خلاله.

ويغلب عليه الأسلوب الفني، الذي يحتوي على بعض العناصر الفنية الجمالية مثل: حُسن الصياغة وترتيب الأفكار والجودة اللغوية والخيال.

واتخذ النثر الفني في العصر الحديث قوالب متعدّدة، كان بعضها امتدادا للقوالب القديمة مع تغيير في الفكرة والأسلوب وطريقة العرض، وظهرت قوالب جديدة نتيجة التأثر بالآداب الغربية وتماشيا مع متطلبات الحياة.

ويشمل النثر الفني: الرسالة والمقالة والقصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلة، وسنوضح خصائص كل لون من هذه الألوان، وأشهر من تناوله من الكُتاب، نجد: (مي زيادة، أحمد أمين، محمد مندور، محمد حسين هيكل، طه حسين ، العقاد، البشير الإبراهيمي، عبد الحميد بن باديس...) وغيرهم من الأدباء.

4)أهمية فنون النثر: يكمن للنثر أهميته الكبيرة في الأدب، فهو يلبي متطلبات الحياة من خلال الكتابة النثرية والفنية، التي تُعبر عن مختلف الآراء ووجهات النظر، فجميع الأمم على مختلف العصور كانت تحتاج إلى حكم في الدين والصناعات، وإلى توضيح للحياة الاجتماعية ككل، وإلى نقل الوقائع وتدوينها للحفاظ على تاريخهم، إذ كانت الحاجة للنثر هي حاجة شاملة، كما نوّه الجاحظ في كتابه الحيوان إلى مكانة النثر، وأهميته في تسجيل المآثر الإنسانية كافة، وذلك عكس الشعر الذي يُركز بتسجيل الجوانب الأخلاقية والفنية فقط، لذلك فقد عُدَّ الكلام المنثور هو أحسن وأوقع من غيره من كلام موزون، ومما يزيد أهمية النثر أن الكتب المترجمة للعربية تثبت ذلك فهي ازدادت حسنًا وانتشرت، حتى أصبحت أبلغ من الشعر.